النواعير في هيت في التراث

د. خليل حسن الزركاني

رئيس مركز إحياء التراث العلمي العربي

المقدمة

ويبدو أن مدينة هيت قد أضحت واحدة من المدن الرئيسية في العصر البابلي القديم حيث ذكرها الملك حمورابي .. وذكرت هيت بأسماء عديدة .. وهي تعد من الحصون القوية للمملكة الآشورية على نهر الفرات .

أما هيرودوتس الذي عاش بالقرن الخامس ق.م والذي كتب وصفا دقيقا وشيقا لمدينة بابل ..وذكر اسم هيت بصيغة (IS آيس) ويذكر إنها كانت مصدرا مهما للقير ذو النوعية الجيدة وتحوي على كميات كبيرة من الكبريت . ويروى أن القير الذي استعمله نبوخذ نصر في أسس مدينة بابل كان قد أخذ من مدينة هيت ، كما ذكر في الكتب السومرية استعمال القير في تبليط الشوارع وفي صناعة السفن وفي أدوات الشرب .

والماء الكبريتي يشفي كثير من الأمراض الجلدية للإنسان والحيوان .

وذكرت هيت في المصادر اليونانية والرومانية باسم (اينو) وهو الاسم الذي منح البلدة اسمها وان اختلفت تسميتها عبر العصور المتلاحقة .

وقد استورد المصريون النفط من العراق وخاصة من مدينة هيت ابرز المدن العراقية في تجهيزهم بتلك المادة وذلك لاستخدامه في صنع وتحنيط المومياء .

وفتحت هيت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) عام (١٦) هجرية وشاركت في النهضة الحضارية التي عمت بلاد الرافدين واعالي الفرات حتى الشام ولها دور فعال في البناء والتاريخ .

وتعتبر من المراكز الثقافية في العصور الإسلامية وقد ذكر من رواة الحديث والعلم في معجم البلدان الجزء الثاني أن الشيخ عبد الله بن المبارك كان أحد أعمدة العلم والحديث المشهورين في هيت والذي توفى ودفن فيها ، ومن أقواله في العلم " أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم العلم ثم الحفظ ثم النشر " ويمثل مكانة عالية في نفوس طلابه لخلقه وأدبه وكرمه .

وهناك شخصيات إسلامية لها مكانتها المرموقة في تاريخنا الإسلامي من أمثال و(اويس القرني) وهو من المؤيدين للإمام علي بن أبي طالب (رض) استشهد في معركة صفين . والشيخ ابو يزيد البسطامي والمدفون في قرية بهيت.

وقد وجدت رسوم الناعورة في التحف المنقولة وفي الرسوم الجدارية.ففي مخطوطة (بياض ورياض) المحفوظة في مكتبة الفاتيكان وهي من القرن السابع الهجري ١٣ م وفي رسوم يحيى الواسطي الفنان العراقي الأول ضمن منمنمات مقامات الحريري المؤرخة سنة ١٣٣٧ المحفوظة في دار الكتب بباريس في فرنسا والرسم عبارة عن صورة توضيحية للمقامة الرابعة والعشرين ويلاحظ في الرسم مجموعة من الرجال في مجلس طرب وانس يجلسون حول ساقية تصب فيها مياه النواعير .

وكانت هيت من المراكز المهمة في العصور الإسلامية وبهذا المعنى أشار ياقوت الحموي (أن سقى الفرات كورا من الانبار و هيت قد نسب إليها قوم من رواة العلم في معجمه) وكذلك ارتبطت هيت بالقرى المجاورة لها بعدة طرق منها القوافل التجارية والمواصلات التي كانت تسلكها الحملات العسكرية من الشرق إلى الغرب .

وذكرت هيت في كتب التاريخ والأدب .. إذ كانت منتجعا ومصيفا رائعا لجمال طبيعتها وهوائها العليل وصوت نواعيرها الشجي وخاصة في ليالي الأنس وتربتها الخصبة في انتاج فواكه وخضر ذات نكهة طيبة كما ذكرها السبنسي شاعر سيف الدولة .

هيت في اللغة

هَيْتَ: تَعَجُّبٌ؛ تقول العرب: هَيْتَ للحِلْم وهَيْتَ لك وهِيتَ لكَ أَي أَقْبِلْ.

وقال الله، عز وجل، حكاية عن زَلِيخا أَنها قالت، لما راوَدَت يوسفَ،عليه السلام، عن نَفْسه: وقالت هِيتَ لكَ أَي هَلُمَّ وقد قيل: هَيْتُ لَكَ، وهَيْتِ، بضم التاء وكسرها؛ قال الزجاج: وأَكثرها هَيْتَ لك، بفتح الهاء والتاء؛ قال: ورُوِيَتْ عن عليّ، عليه السلام: هِيتُ لكَ، قال: ورُوِيَتْ عن ابن عباس، رضي الله عنهما: هِئْتُ لَكَ، بالهمز وكسر الهاء، من الهَيئة، كأَنها قالت: تَهَيَّأْتُ لك قال: فأَما الفتح من هَيْتَ فلأَنها بمنزلة الأَصوات، ليس لها فِعْل يَتَصَرَّفُ منها، وفتحت التاء لسكونها وسكون الياء، واخْتِير الفتح لأَني قبلها ياء، كما فَعَلُوا في أَيْنَ، ومَن كسر التاء فلأَن أَصل التقاء الساكنين حركة الكسر، ومَن قال هَيْتُ، ضمَّها لأَنها في معنى الغايات، كأَنها قالت: دُعائي لكَ؛ فلما حذفت الإِضافة، وتضمنت هَيْتُ معناها، بنيت على الضم كما بنيت حيث؛ وقراءةُ عليّ، عليه السلام: هِيتُ لك، بمنزلة هَيْتُ لك، والحجة فيهما واحدة. الفراء في هَيْتَ لك: يقال إِنها لغة، لأَهل حَوْرانَ، سَقَطَتْ إِلى مكة فتكلموا بها، قال: وأَهلُ المدينة يقرؤُون هِيتَ لكَ، يكسرون الهاء ولا يهمزون؛ قال: وذُكِرَ عن عليّ وابن عباس، رضي الله عنهما، أَنهما قرآ: هِئْتُ لك، يراد به في المعنى: تَهَيَّأْتُ لك، وأَنشد الفراء في القراءة الأُولى لشاعر في أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب،عليه السلام: أَبْلِغْ أَميرَ المُؤمِنِيـ ـنَ، أَخا العراقِ إِذا أَتَيْتا: إِنَّ العِراقَ وأَهْلَهُ سِلْمٌ إِليكَ، فهَيْتَ، هَيْتا ومعناه: هَلُمَّ، هَلُمَّ وهَلُمَّ وتَعالَ، يستوي فيه الواحدُ والجمع والمؤَنث والمذكر إِلاّ أَن العدد فيما بعده، تقول: هَيْتَ لكما، وهَيْتَ لكنَّ. قال ابن بري: وُجِدَ الشعرُ بخط الجوهري إِن العراق، بكسر إِنَّ، ويروى بفتحها؛ ويروى: عُنُقٌ إِليك، بمعنى مائلون إِليك؛ قال: وذكر ابن جني أَن هَيْتَ في البيت بمعنى أَسْرِعْ، قال: وفيه أَربع لغات: هَيْتَ، بفتح الهاء والتاء، وهِيتَ، بكسر الهاء وفتح التاء، وهَيْتُ بفتح الهاءَ وضم التاء، وهِيتُ بكسر الهاء وضم التاء. الفراء في المصادر: مَن قرأَ هَيْتَ لَكَ: هَلُمَّ لَكَ، قال: ولا مصدر لِهَيْتَ، ولا يُصَرَّفُ. الأَخفش: هَيْتَ لكَ، مفتوحة، معناها: هَلُمَّ لكَ؛ قال: وكَسَرَ بعضُهم التاء، وهي لغة، فقال: هَيْتِ لك، ورفع بعضٌ التاء، فقال: هَيْتُ لك، وكسر بعضهم الهاء وفتح التاء، فقال: هِيتَ لك، كلُّ ذلك بمعنى واحد.

وروى الأَزهري عن أَبي زيد، قال: هَيْتَ لكَ، بالعِبرانية هَيْتالَحْ أَي تعالَ؛ أَعربه القرآن.

والهِيتُ الهُوةُ القَعِرةُ من الأَرض.

وهِيتُ، بالكسر: بلد على شاطئ الفُرات، أَصلها من الهُوَّة؛ قال: طِرْ بجنَاحَيْكَ، فقد دُهِيتا، حَرَّانَ حَرَّانَ، فهِيتاً هِيتا وقيل: معناه اذْهَبْ في الأَرض. قال أَبو علي: ياء هِيتَ، التي هي أَرضٌ، واوٌ، وقد ذكرت. التهذيب: هِيتٌ موضع على شاطئ الفُرات؛ قال رؤْبة:والحُوتُ في هِيتَ، رَداها هِيتُ قال الأَزهري: وإِنما قال رؤبة: وصاحبُ الحُوتِ، وأَينَ الحُوتُ؟ في ظُلُماتٍ، تَحْتَهُنَّ هِيتُ ابن الأَعرابي: هِيتُ أَي هُوَّة من الأَرض، قال: ويقال لها الهُوتَةُ؛ وقال بعض الناس: سميت هِيتَ لأَنها في هُوَّة من الأَرض، انقلبت الواو إِلى الياء، لكسرة الهاء؛ والذي جاء في الحديث: أَن النبي، صلى الله عليه وسلم، نفى مُخَنَّثَيْن: أَحدهما هِيتٌ والآخر ماتِعٌ، إِنما هو هِنْبٌ، فصحَّفه أَصحاب الحديث. قال الأَزهري: رواه الشافعي وغيره هِيتٌ؛ قال: وأَظُنُّه صواباً.

النواعير المائية في أعالي الفرات....

يعد الناعور المائي عملا هندسيا رائعا قائما على العلم يشهد للعقل العراقي بالخصوبة والابتكار لقد صممت هذه الآلة بطريقة هندسية رائعة وبارعة لم يتمكن العلم الحديث إلى تطويرها بشكل أفضل مما هي عليه منذ ألاف السنين.

مصدر تسمية الناعور يعود الى الصوت الصادر عنها وتبين المصادر العربية ان كلمة ناعور عربية ومعروفة ففي المنجد نعر- نعيرا ونعارا: الرجل صاح بخيشومه والناعر الصائح والنعير مصدر الصراخ والناعور الة لرفع الماء قوادمها دولاب كبير وقواديس مركبة على دائرة وقد انتشرت في هيت وعانة وراوة في الالف الرابع قبل الميلاد ومنها انتقلت الى بلاد الشام والمغرب واسبانيا.الأصل في نشأة النواعير هو العراق او اعالي الفرات.

واعتقد أن العراقيين هم أول من اكتشف الناعور لحاجتهم الماسة إليه فمنطقة أعالي الفرات من المناطق التي تعتمد على السقي بهذه الطريقة.

فقد عثرت البعثة الكندية على كسر فخارية بين حديثة وعانة تعود إلى الإلف الرابع قبل الميلاد وهو تاريخ قديم جدا يثبت ان العراقيين هم اول من استخدم هذا الجهاز وهو عبارة عن آلة من الخشب مستديرة الشكل حيث يبلغ طول قطر دائرتها ٨ م كما تدور دواليب الهواء في الفضاء، فعندما يغطس نصفه في التيار أو الفتحة التي يدور فيها الناعور وتسمى (السيب) تمتلئ الجراره بالماء وهي عبارة عن أوعية مصنوعة من الطين المفخور ولا يزيد عددها على ٢٤ كوزاً في الدولاب الواحد. وبعد الامتلاء ترتفع نحو الحوض فينساب الماء الى الساقية الرئيسة ثم إلى الحقول.

أنواع النواعير

نواعير السقي عند العرب على نوعين :

١. نواعير تدار بالحيوانات .
٢. نواعير تدار بقوة الماء الجاري في الأنهار.

فالنواعير التي تدار بالحيوانات هي أقدم النواعين لان الإنسان في أول أمره استعان بالحيوانات ليخفف من جهده وتعبه قبل إن يفكر باستغلال المياه الجارية والشلالات لتوليد الطاقة وهي أيسر استعمالا من تلك التي تدار الماء الجاري لأنه يمكن استخدمها في أي مكان ولاشترط وجود نهر بالقرب منها ولذلك فهي منتشرة في كل المناطق العربية ابتدأ من العراق حتى أقصى المغرب .

وهذا النوع من النواعير يكون على شكلين :أولهما التي تثبت الدلاء على محيط الدولاب الدائر على الماء فيكون قطر الدولاب مساويا للارتفاع الذي يراد رفع الماء إليه ،ونادرا مايزيد هذا على مترين .وهذا النوع منتشر كثيرا في مصر ويسمى بالساقية .

أما الشكل الثاني من هذه النواعير فهو الذي تربط فيه الدلاء بقضبان من الحديد من الجانبين على شكل سلسلة يديرها الدولاب دون أن تكون مثبته عليه .

وتتدلى هذه السلسلة بالدلاء التي عليه البئر على عمق قد يبلغ الستة أمتار ،لذلك فهي تحمل ثقلا اكبر مما عليه في الأول ويحتاج الدولاب إلى طاقة اكبر من طاقة اكبر لإدارته .وهذا النوع يكثر استعماله في الموصل لارتفاع الأراضي المتموجه بالنسبة لمستوى المياه الجوفية .

أما الحيوانات المستعملة في هذه النواعير فأهمها البغال والثيران ونادرا ما تستعمل الجمال في العراق لإدارة النواعير ،ولكن القاضي التنوخي (ت، ٣٨٤هـ) يذكر في كتابه نشوار المحاضرة قصة دولاب يديره جمل في الانبار قال : أن امرأة من أهل الانبار كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها خرجت من بيتها الى بغداد في محنة عرضت لها ،وفي الطريق رات جملا يدير دولابا فقالت ماهذا ؟ فقيل لها : دولاب يديره جمل ، فحلفت بالله انها مارات جملا من قبل ([1]).

أما النوع الثاني من النواعير وهي التي تدور بقوة الماء الجاري في الانهار في دواليب يحركها تيار الماء . وقد يحصر ماء النهر وراء دفات الدولاب ليكون تأثيره اشد قوة على التحريك ،ويكون الدلاء مثبته على محيط الدولاب الممتلئ من ماء النهر ثم ترتفع لتسكب الماء في المجرى المعد لهذا الغرض،وبهذه الطريقة يستفاد من طاقة تيار النهر دون إن تبذل طاقة أخرى من أي نوع كانت ([٢])

صناعة النواعير

يتخصص فيها نجارون محترفون ورثوا هذه الصنعة عن آبائهم وأجدادهم ، تصنع النواعير من أخشاب الأشجار المتوفرة محلياً وتختلف بقيمتها وحجمها ومتانتها حسب نوع الخشب المستخدم في بنائها،، وتعد النواعير المصنوعة من خشب التوت أغلى ثمناً وأطول عمراً وأكثر صموداً إمام عوامل الطبيعة وإنها قادرة على العمل عشرات السنين من دون إن تكون بحاجة إلى صيانة، والشيء الطريف في صناعة الناعور هو إن النجارين يعتمدون كلياً على مادة الخشب من دون إدخال أية مادة معدنية كالحديد والمسامير بل يتم صنع مسامير من الخشب.

ان استخدام النواعير في هذه المنطقة يؤكد بان ((العرب أول من اكتشف الزراعة التي تعتمد على الري واول واقدم من مارس الزراعة واول من اسس الحضارة الاروائية ([٣]) ،ومما يؤكد ذلك قول وليم ويلكوكس بهذا الشان مايلي ((وعندما اتجه الساميون القدماء اسلاف عرب الشمال الى الفرات تاركين وطنهم الاصلي الذي تتوفر فيه الامطار الموسمية المنتظمة ودخلوا السهوب الواقعة في شمال بلاد العرب ،وكانت البقعة الواقعة بين عانة وهيت . والفرات في هذه المنطقة يمر بسلسلة من الشلالات غير المنتظمة فيستخدم التيار المتكون منها في تدوير النواعير الكبيرة التي ترفع المياه فتسقي الوادي الضيق الذي ينتهي بالصحراء .وقد كانت هذه البقعة ولاتزال غنية بالحدائق والبساتين تتخللها حقول الذرة والقطن . وليس هذا بالامر الغريب فالحياة والرخاء يتوافران حيث تتوفر المياه واليوم بعد هبوط الشلالات ذلك الهبوط الذي لاحظ نموه المطرد اصبح من الضروري الاستعانه بالنواعير في ارواء تلك البساتين والحدائق)) ([٤])

وعن غنى هيت جاء في لغة العرب ما يلي :

((هواؤها طيب ومناخها حسن وارضها عذبه ،وليس في العراق بلدة بنقاوة هوائها وصفاء مائها وحسن تربتها مثل هيت ،ولهذا اشتهر اهلها بالزراعة والحراثة منذ سابق العهد الى يومنا هذا))([٥])

كما جاء ذكر هيت في معجم البلدان للحموي كما يلي:

((وهي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، وهي مجاورة للبرية ،طولها من جهة المغرب تسع وستون درجة ،وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ونصف وربع([٦]).

وهي في الاقليم الثالث اوفد اليها سعد جيشا في سنة ١٦ هـ

يقول احد المؤرخين تختلف نواعير هيت عن نواعير حلب الموجودة في سوريا،

نواعير سوريا تتكون من الحديد بينما نواعير هيت من الخشب،

من أغصان الأشجار والأواني الفخارية لنقل المياه من النهر إلى الساقية ومن ثم إلى البساتين.

النواعير في التراث العربي

لقد زخرت كتب التراث العربي بحكايات جميلة من التراث العربي فقد أوردت طائفة من الأشعار، ومعظمها قيل في نواعير الفرات، وما أكثر النواعير على شط الفرات كما يقول الزمخشري في أساس البلاغة. غير أن الأشعار التي قيلت في نواعير حماة هي التي حفظتها الرواة ودوَّنها المدونون. وسوف نتحدث هنا عن كتاب الأنوار في محاسن الأشعار لأبي الحسن الشمشاطي وكتاب بدائع البدائة لابن ظافر الأزدي، وهما غريبان في

بابهما لاشتمالهما على مجموعة من شعر القدماء في نواعير الفرات ومصر، كما نتحدث عن نواعير حماة في شعر ابن نباتة المصري.

ً النواعير في كتاب الأنوار في محاسن الأشعار:

أبو الحسن علي بن محمد العدوي المعروف بالشمشاطي من أعلام القرن الرابع الهجري، مالك لأعنة البيان شعراً ونثراً، غير أن أخباره وآثاره نادرة في كتب الأدب والتراجم.. لذا لا نعرف منها إلا القليل(٧)وربما كان كتاب الأنوار في محاسن الأشعار هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا من تصانيفه الكثيرة التي قاربت الأربعين كتاباً، معظمها يتعلق بالأدب وأخبار أهله، ومنها ما يتعلق باللغة والنحو و التاريخ والأنساب، ومنها ما ذهب في بيان فضيلة التشيع والانتصار له، وهناك رسائل في موضوعات متفرقة. ويدل كتاب الأنوار على دراية تامة بأيام العرب، ورواية ضافية وافية لطائفة من شعرائهم. وقد تفرد برواية أخبار وأشعار لم ترد في أي كتاب سواه، وبخاصة مقطعات من شعر أبي العباس النامي والحسين بن الضحاك وديك الجن وأبي نواس. ومن المعروف أنه جمع ديوان ديك الجن، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا. ويذكر محقق الكتاب الدكتور السيد محمد يوسف أن هذا الكتاب لم يخل من أبيات نادرة للقدماء أمثال النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم والأخنس بن شهاب.

ولعل أجمل ما أطرفنا به الشمشاطي نخبة مجموعة من أشعار العرب في النواعير وحنينها، فقد قدّم لنا اثني عشر نصاً فريداً في هذا الموضوع الذي لم يعرض له كاتب سواه قبله. وهذه النصوص هي أقدم ما وصل إلينا في النواعير، ثم أضاف إليها نصاً من شعره. وهي: نص لأعرابي مجهول، وللمجنون نص، ولعبيد الله بن مسعود ثلاثة نصوص، ولأبي العباس النامي نص، ولصالح الديلمي نص، وللخباز البلدي نص، ولأبي طالب الحسين بن علي الإنطاكي نصان، ولابن الرومي نص، ولمصنف الكتاب أبي الحسن الشمشاطي نص. والنواعير المقصودة في تلك النصوص هي نواعير الفرات ودجلة، وليست نواعير العاصي، وهي أصغر حجماً وأقل حمولة من نواعير العاصي. ونعيرها وإن كان متشابهاً في تلحينه.. إلا أنه مختلف في تلوينه، ارتفاعاً وانخفاضاً. ونواعير العاصي أبعد مدى وأعظم صدى، على أن تأثيرها في النفس واحد، وكلاهما حزين مثير للوجد والشجن.

يربط أعرابي في النص الأول بين حنين النواعير وحنين الإبل، غير أن حنين الإبل له أسبابه وبواعثه، فهي تحن إلى معاطنها ومواطنها، في حين كان حنين النواعير مبهماً لا وجه له، سوى أنه يشجي الحزين، فينثر المدامع على الخدّين إظهاراً لوجده الدفين.

يقول الشمشاطي في كتابه: أُنشدت لبعض الأعراب:

ولما نزلنا الساحلينِ تجاوبت *** أبا عرُنا لما ازدهتْها النواعرُ

وحنّت نواعيرُ الفرات بأرضها *** فلما استحنّت جاوبتْها الأباعر

أباعِرنا .. بعض الحنين.. فإنه *** إلى غير شيء ما تحنّ النواعر

سوى أنها تُشجي الحزينَ الذي به *** إلى رؤية الأحباب داءٌ مُخامر

إذا نحن أخفينا الدفينَ الذي بنا *** من الوجدِ نمّته الدموعُ البوادر((٨))

ومثله فعل المجنون في حديثه عن النواعير، فهو يحن من وجده إلى ربى نجد، وهي تحن من غير وجد، ولكن الفرق بينهما أن دموعها تسقي الرياض، ودموعه تقرح الخدود. يقول المجنون:

باتت تحنّ وما بها وجْد *** وأحنّ من وجد إلى نجد

فدموعُها تسقي الرياضَ بها *** ودموعُ عيني أقرحتْ خدي((٩)) وإني لأظن أن نص الأعرابي ونص المجنون، كلاهما رائد في بابه، غير أن الأول عليه مسحة البداوة، والثاني عليه نفحة الحضارة، وما تلاهما من نصوص كان تبعاً لهما، وتفصيلاً لما كان مجملاً.

ويبدو لي من قراءة نصوص عبيد الله بن مسعود (٩٨)هـ أنها متشابهة، فألفاظها واحدة، ومعانيها متقاربة. فمفردات (الحنين والشجو والصبابة والدموع) وردت في النصوص الثلاثة، وبالتالي فإن معانيها أقارب وشكول. على حين تميز النص الأول بشيء من الإيضاح (مياه النواعير تسقي الحلو من الثمر، والدموع تسقي ما كان غير حلو). أما النص الثاني فيجعل الشاعر دموعها ودموعه سواء. وفي النص الثالث نجد أن الشاعر والنواعير كلاهما يبكي، فهو يتوحد بالناعورة، ولكن بكاءه قرّح الجفون، وجفونها سلمت من التقريح.

يقول عبيد الله بن مسعود في النص الأول:

حَننْت إليك من شجو وحنّت *** نواعيرُ الفرات لغير شجو

خلونَ من الهوى ومُلئت منه *** وليس أخو صباباتٍ كخِلْوِ

سقينَ الحلوَ من ثمرٍ وتسقي *** دموعي من همومي غيرَ حُلْوِ(([١٠]))

ويقول في النص الثاني:

نزلنا بالفرات ضُحىً وحنّت *** نواعرُه حنينَ المُعْولاتِ

وظَلْتُ أحنُّ من شوق وليست *** تحنُّ لـه نواعيرُ الفرات

وبتُّ من الصبابة مستهاماً *** إليك وبتْن منها خاليات

سواءٌ ما سقينَ وما جرتْه *** جفوني من دموعي الهاطلات(([١١]))

ويقول في النص الثالث:

ولما استحنّت بالفرات عشية *** نواعيرُه كاد الفؤادُ يبينُ

تحن بلا حزن وشوق أصابها *** وللقلب من شوق إليك حنين

سواء بكاء العين مني والذي *** بكين ولكنْ ما لهن عيون

على أنني والله قد أقرح البكا *** جفوني ولم تقرح لهن جفون(([١٢]))

وهذه النصوص الثلاثة المنسوبة لعبيد الله بن مسعود تحملني على الشك في صحة نسبتها إليه، لأنه أحد الفقهاء السبعة في عصره، وهو شاعر ضرير، وهيهات أن يرى ما يرى من حسن ورواء، وبينه وبينها حجاب. والشمشاطي في كتاب الأنوار ينسب النص الأول لعبد الله بن مسعود، وهذا خطأ أو وهم من الناسخ.

ويتناول ابن الرومي (٢٨٣)هـ موضوع الناعورة تناولاً مختلفاً، فهو يلجأ إلى الوصف مستخدماً بعض معطيات العلم والفن، حيث نجد ألفاظاً ذات مظهر حضاري مثل (السماريّة، البربط، القينة، اللحن، الزامر، الفلك الدائر) فيشبه الناعورة قرب السمارية (سفينة) بالبرط (العود) تارة، وبالقينة (المغنية) تارة أخرى، وكيزانها (جمع كوز) أنجم دائرة في فلك دائر. ويشتق ابن الرومي من لفظة الناعورة صوتاً لها، فهي تنعر بالماء إذا أخرجت صوتاً. يقول:

كم صوّبت فيه سماريةٌ *** موجفةٌ كالنقنق النافرِ

ونعرتْ بالماء ناعورة *** حنينُها كالبَرْبَط الناعر

وتارةً تحسبها قينةً *** تردّد اللحنَ على زامر

كأنما كيزانُها أنجمٌ *** دائرةٌ في فلك دائر(([١٣]))

ولابن الرومي في الناعورة بيتان مفردان قائمان على التشبيه فحسب، وكأنما اصطنعهما اصطناعاً للتدليل على مقدرته البيانية، وقد وردا في ديوانه. يقول:

وناعورة شبّهتُها حين أُلبست *** من الشمس ثوباً فوقَ أثوابها الخُضر

بطاووسِ بستانٍ يدور وينجلي *** وينفضُّ عن أرياشه بَلَلُ القطْر((١٤))

ويقترب صالح الديلمي من ابن الرومي في تشبيه الناعورة بالفلك الدائر، وكيزانها بالنجوم، غير أن الديلمي أضاف ما أضاف توضيحاً لما ذهب إليه، فمنح الناعورة حياة، وجعلها تتحرك وهي بلا روح، وجعل كيزانها وهي تصبّ الماء كالنجوم المنقضة من السماء. يقول:

ومستديرٍ بلا روح تدبّره *** يديرُه قُطْبٌ في الأرض مركوزُ

كأنه فَلَك تنقضّ أنجمُه *** إذا تصوّب من كيزانها كوزُ((١٥))

أما أبو بكر الصنوبري أحمد بن محمد (٣٣٤)هـ فقد جعل كواكب الفلك تنقضّ ساعة تطلع، كما جعل أصواتها ذات تلوين، فهي ترتفع وتنخفض، فيُسمع منها حيناً حنين الذئب مردداً، ويسمع منها حيناً آخر زئير الليث مرجّعاً. يقول الصنوبري:

فَلَكٌ من الدولاب فيه كواكبٌ *** من مائهِ ت تنقضُّ ساعةَ تطلعُ

متلوّنُ الأصوات يخفضُ صوته *** بغنائه طوراً وطوراً يرفع

أبداً حنين الذئب فيه مردَّد *** أبداً زئيرُ الليث فيه مرجَّع((١٦))

ويتفرد الخبّاز البلدي محمد بن أحمد بن حمدان (القرن الرابع الهجري) بوصفٍ مخترع.. لا يخلو من غرابة عندما جعل دولاب الناعورة سحابة من خشب، والفلك الدائر يزمزم بأصوات لا تفهم كأنها أصوات الترك، وهو يدور.. فلا يكلّ ولا يملّ، ودوراته لا يحصيها حاصٍ.. ولو فعل لتعب من الإحصاء. يقول الخباز البلدي:

يسوقُ من دجلةَ الرّواء لـه *** سحابة أنشِئتْ من الخشب

نجوم ماءٍ يديرها فلكٌ *** يكثر منه تعجّبُ العجب

مزمزمٌ لا يبينُ منطقه *** كقائد التركِ غدْوةَ الشغب

يتعب جداً مُحْصي تقلّبه *** وهو مُعافى من شدّة التعب((١٧))

ويكتفي أبو العباس النامي (٣٩٩)هـ بالتعجب من صنع الناعورة، واختلافها خلقة وخليقة، فأفواهها في أوساطها، وعيونها في جنوبها:

وصلتْ نواعير الجنان حنينها *** (دهراً) فأذكرتِ الهوى أخلاقُها

وكأنما طفقتْ تُواصل أدمعي *** يومَ النوى وقد انهمى مُهراقُها

أعجِبْ بأجسامٍ بدائعَ خالفت *** في خَلْقها وتنكرت أخلاقُها

أفواهُها أوساطها، وعيونُها *** بجنوبهنّ كثيرةٌ آماقُها((١٨))

ولأبي طالب الحسين بن علي الأنطاكي (القرن الرابع الهجري) في الناعورة نصان متقاربان، اعتمد فيهما على من سبقه تصويراً وتعبيراً. وقد نلحظ فيهما قدراً من الإبانة، وقدراً من التفصيل فالناعورة تسير.. وهي ثابتة في

مكانها.. فلا براح، وهي على الدوام تستعطي وتعطي، وتنشر محاسنها نفحة طيبة، وشجراً وظلاً، وفواكه دانية القطوف. يقول:

بمشمّر في السير إلا أنه *** يسري فيمنعه السُّرى أن يبعدا

وصل الحنين بعبرةٍ مسفوحة *** حتى حسبناهُ مَشُوقاً مُكْمدا

مسترفدٌ ماءَ الفرات ورافد *** وجْهَ الثرى أكرِمْ به مسترفدا

ينفي الصّدى عن روضةٍ نفحاتُها *** أرَجٌ وبردٌ يشفيان من الصدى

كملتْ محاسنُها فنشرٌ يُرتضى *** وفواكهٌ تُجنى وظِلٌّ يُرتدى

ويقول أيضاً:

كأنّ دولابَها إذ حنّ مغتربٌ *** ناءٍ يحنّ إلى أوطانِه طرَبا

باكٍ إذا عقّ زهرَ الروض والدُه *** من الغمام غدا فيه أباً حَدِبا

مشمّر في مسيرٍ ليس يبعده *** عن المحلّ ولا يهدي لـه تعبا

مازال يطلب رِفْدَ البحر مجتهداً *** للبرّ حتى ارتدى النوّارَ والعشُبا((١٩))

ومثله فعل صاحب كتاب الأنوار أبو الحسن الشمشاطي حين يقول:

نزلنا بأكناف العراق فهيّجتْ *** نواعيرُه أحزاننا حين حنّتِ

تحنّ وتسقي الروضَ ريّاً ولم تذق *** هوايَ الذي منه دموعي استهلّتِ

ولم تعرف الشوقَ الذي في جوانحي *** ولا حُرَقاً بين الضلوع استكنّت

ولو علمتْ ما قد لقيتُ ومُلِّكت *** لساناً لباحت بالهوى وتشكّت((٢٠))

والبيت الأخير يذكرنا بما قاله عنترة في معاناة جواده إبان الحرب.. والكر والفر:

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى *** ولكان لو علمَ الكلامَ مكلّمي

تلكم هي أقدم النصوص التي تحدثت عن نواعير دجلة والفرات في القرون الأربعة الأولى، أما الذين تحدثوا عن نواعير العاصي فلم يرد لهم ذكر في كتب الأدب والتراجم إلا بعد القرن الخامس الهجري.

2ً ـ النواعير في كتاب بدائع البدائه:

شهد العهد الأيوبي منذ قيام دولة الناصر صلاح الدين نشاطاً عقلياً واضحاً، شمل كل مناحي الفكر، من علم ودين، وأدب وفن، وتاريخ ولغة، ظهر في عدد من المؤلفات الحسان التي تركها لنا جهابذة العلم وأساتذة الفن أمثال: أسامة بن منقذ والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن الأثير وياقوت الحموي وغيرهم من جلة العلماء والأدباء والشعراء، وكان ما خلفوه لنا من إرث حميد خير شاهد على سمو مكانتهم العلمية في عصر اتسم بالصراعات الدائمة والحروب الطاحنة مع الصليبيين الغزاة طوال قرنين من الزمن.

ولعل أبا الحسن علي بن ظافر الأزدي كان واحداً من رجال هذا العهد الذين أغنوا تراثنا العلمي والأدبي، وأسهموا في قيام حضارة عربية ذات أصول راسخة، وظلال وارفة، وقطوف دانية.. نعم الشرق والغرب

بخيراتها، فكانت للإنسانية هدى وخيراً، وخصباً وريّاً، وحسناً وإحساناً. فمن هو ابن ظافر الأزدي، وما هي أخباره وآثاره، وماذا قدّم لنا في كتابه "بدائع البدائه" من حديث عن النواعير..؟

ولد أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي في القاهرة سنة ٥٦٧هـ، وهي السنة التي قطع فيها صلاح الدين بن أيوب خطبة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية، وخطب للخليفة العباسي المستضيئ، وأصبح سيّد الموقف في مصر، ونائباً لنور الدين محمود بن زنكي فيها، وقد تسنى لابن ظافر الأزدي أن يقرأ الأدب والأصول والتاريخ وأن يبرع فيها. ثم ما لبث أن نهد للتدريس بالمدرسة الكاملية بعد أبيه، وترسّل بعدها في الديوان العزيز بمصر. كما تمكن بحكم عمله أن يقيم صلات مودة مع عدد من أعلام عصره، نذكر منهم: القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه، وابن سناء الملك شاعر عصره، والعماد الأصفهاني صاحب خريدة القصر، وأبا اليمن الكندي اللغوي النحوي المشهور، وكان بينه وبينهم مساجلات ومطارحات أورد طائفة منها في كتبه. وكانت داره ملتقى القصّاد ومحط رجال العلم من شرق العالم الإسلامي وغربه.

وقد صحب ابن ظافر الأزدي الأشرف موسى بن الملك العادل إلى الديار الشرقية من بلاد الشام وزيراً، لتوطيد الأمن فيها، ولكن ابن ظافر الأزدي ما لبث أن نفر من الوزارة وأوزارها، وبرم بالغربة ووعثاء أسفارها، فانفصل عن خدمة الأشرف موسى، وعاد إلى القاهرة، حيث ديار الأهل ومواطن الأحبة، ومراتع السرور ومعاهد العلوم. وولي وكالة بيت المال مدة، ثم انصرف في آخر أيامه إلى التصنيف وقرض الشعر.. حتى وافاه الأجل المحتوم، وقد اختلف أصحاب التراجم في سنة وفاته، فمنهم من جعلها سنة ٦١٣هـ مثل ياقوت في معجم الأدباء، ومنهم من جعلها سنة ٦٢٣هـ مثل ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات، والأول أصح لمعاصرته له.

ترك ابن ظافر الأزدي بعض المؤلفات، ذكر منها ياقوت وابن شاكر الكتبي عشرة، ولم يصل إلينا منها سوى ثلاثة.. هي: بدائع البدائه، وأخبار الشجعان، وأخبار الدول المنقطعة، وقد طبع كتاب البدائع والبدائه، أما الكتابان الآخران فما يزالان مخطوطين محفوظين في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

وما يهمنا من آثاره كتابه المطبوع، أعني بدائع البدائه، وقد طبع ثلاث مرات، الأولى طبعة بولاق سنة ١٢٧٨هـ بعناية الشيخ محمد قطة العدوي، والثانية على هامش معاهد التنصيص سنة ١٣١٦هـ، والثالثة طبعة مصرية صدرت عام ١٩٧٠ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وهي أفضل الطبعات الثلاث وأتمها .

ويعد كتاب بدائع البدائه من عيون الأدب، لأنه يشتمل على فوائد أدبية مختارة من كتب الأدب والنقد والتراجم، مما يوافق منهجه في التأليف، ومذهبه في التقسيم الذي التزم به. ولعل أجمل ما فيه من مطارحات وحكايات ما وقع في مجالسه، وما دار بينه وبين شعراء عصره في أثناء نزهاتهم بين الرياض والغياض، وعلى أصوات النواعير وخرير المياه عند ضفاف الأنهار، في غوطة دمشق وأرباض القاهرة، مما يذكي القرائح، ويقدح زناد البديهة والارتجال.

وقد مهد ابن ظافر الأزدي لكتابه بمقدمة أوضح فيها منهجه في التصنيف، وأبان عن تفرده فيه، مفتخراً بأن عمله لم يسبقه إليه أحد، ولم يرقمه في الطرس بنان. والكتاب مقسم إلى خمسة أبواب:

١ ـ في بدائع بدائه الأجوبة.

٢ ـ في بدائع بدائه الإجازة.

٣ ـ في بدائع بدائه التمليط.

٤ ـ في بدائع بدائه الاجتماع على العمل في مقصود واحد.

٥ ـ في بقية بدائع البدائه.

واستهل عمله بفصلين حول اشتقاق البديهة والارتجال، والفرق بينهما، ثم ختمه بمثل ما بدأ به. يقدم لنا ابن ظافر الأزدي في هذا الكتاب بعض الشواهد الشعرية حول النواعير، وهي شواهد قيلت على سبيل البديهة والارتجال، للتدليل على مقدرة أصحابها في فن الصنعة الشعرية، ولاختبار قرائحهم في إصابة المعنى بسرعة، أي بديهة لا رويّة فيها، انسجاماً مع منهج المؤلف في كتابه. ولا تخلو هذه الشواهد من فوائد، وبراعة في الوصف، وبداعة في التشبيه وكلما أغرب الشاعر في وصفه كان أبلغ في بيانه، وأقرب إلى الدقة في إحسانه.

ومن فوائد هذه الشواهد أنها ترصد لنا بعض التسميات للنواعير التي وردت على ألسن الشعراء، فمنهم من يطلق عليها اسم (النواعير) مثل أبي محمد النامي في وصف ناعورتي بشيناء إحدى قرى بغداد. ومنهم من يطلق عليها اسم (الساقية) أو (الدولاب) مثل القاضي الأعز علي بن المؤيد الغساني في مساجلته مع ابن ظافر الأزدي صاحب الكتاب. وهذه التسميات ما تزال تتردد على ألسنة الشعراء حتى يومنا هذا، ولكن تسمية (النواعير) هي أكثر شيوعاً واستعمالاً بسبب خصوصية هذه اللفظة، وعدم تعدد معناها. فالساقية مثلاً يمكن أن يكون لها أكثر من دلالة، وكذلك الدولاب، في حين لا تعني الناعورة أكثر من المعنى المقصود الدال على شيء بعينه.

ويلاحظ أن ما قدمه ابن ظافر الأزدي في كتابه يتوافق مع ما ذهب إليه من إيراد النصوص التي يغلب عليها الارتجال كما قلنا آنفاً، فما جاء مرتجلاً أو على البديهة، إجازة أو تمليطاً (ضرب من الإجازة أو المساجلة) كان أدعى لوقدة الذهن وحدّة الخاطر من القول الذي يأتي بعد روية وإعمال فكر. والمرتجل أو الباده كما يقول ابن ظافر الأزدي يقنع منهما بالرديء اليسير، ولا يقنع من المروي إلا الجيد الكثير([٢١]). ولذلك كانت شواهده الشعرية الخاصة بالنواعير مصطنعة، يبدو عليها أثر التكلف، وشتان بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع على حين كانت مقدماتها النثرية ساطعة في بيانها بالرغم من زخارفها البديعية ومحسناتها اللفظية، لأن هذه الزخارف هي من سمات العصر. وهذا النقد لا يمس شواهد الكتاب الأخرى إلا في مواضع قليلة.

يقول ابن ظافر الأزدي في كتابه بدائع البدائه:

ومررت أنا وهو (يعني القاضي الأعز بن المؤيد) رحمه الله يوماً بدولاب يئن أنين ثكالى فقدت أطفالها، والنواعج أضلت آفالها، ويبكي بكاء صبّ آلمه هواه، وصارمه من يهواه، وفرّق البين بينه وبين محبوبته فراقاً لا يرجى انقطاعه، ولا يمكن استرداد ما سلبه منه ولا استرجاعه، فقلبه قد ملأته أوجاعه، وجفنه قد ضاق مجراه عن دمعه ففتحت به أضلاعه، فقلت:

وساقيةٍ تئنُّ أنينَ ثكلى *** شكَتْ بأنينها حرَّ الأُوارِ

فقال:

تحنّ ولا تزال تطوفُ عَجلى *** كرازمةٍ تحنُّ إلى حُوار

فقلت:

غدت تَحكي مُحباً ذا انتحابٍ *** يطوّف باكياً في رسم دار

فقال:

حكت فلكاً لجلْب اللهو دارت *** عليه من قوادسِه دَراري

وبصرنا بساقية تتلوى تلوّيَ الأفعوان، وتخفق خفقات قلب الجبان، والزهر قد نظم بلبّتها عقوداً فوق أثوابها الممسّكة، والنسيم يكسوها ويلبسها غلائل مفركة، فقلت:

أساقية أم أرقمٌ فرّ هاربا

فقال: أم الريحُ قد هزّت من الماءِ قاضبا

فقلت:

حصىً مثلُ دُرّ الثغرِ أجرى زلالُه *** رضباً وأبدى نبتُه النضرُ شاربا

فقال:

يوَشّحها زهرُ الرياض قلائداً *** ويُلبسها مرُّ الرياح جلابباا((٢٢)) (٢٣)

قصص الحب وقصائد الشعراء في كل مكان جميل.. وطبعا لا يمكن أن يفوت الشعراء هذا

القائد الهيتي (٥١٥هـ)

فمن لي بهيت وابياتها فانظر رستاقها والقصورا

فيا حبذا تيك من بلدة وفيتها الروض غضا نظيرا

وبرد ثراها اذاِ قابلت رياح السمائم فيها الهجيرا

واني وان كنت ذا نعمة اجاور بالنيل بحرا غزيرا

احن اليها على نأيها واصرف عن ذاك قلبا ذكورا

حنين نواعيرها في الدجى اذا قابلت بالضجيج السكورا

ولو كان مابي باعودها منوطا لاعجزها ان تدوا

بلاد نشأت بها ساحبا ذيول الخلاعة طفلا غريرا(٢٤)

المصادر والمراجع

١. د احمد سوسه ، حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين ،وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد ، ١٩٨٠ .
٢. انستاس ماري الكرملي ، مجلة لغة العرب ،المجلد الاول ،اذار ١٩١٢
٣. جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الازدى ، بدائع البدائه في جزئين ، وطبع ايضا في مطبعة محمد مصطفى سنة ١٣١٦ هـ
٤. التنوخي ، نشوار المحاضرة وإخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي ج٨ ، بيروت ،١٩٧١.
٥. حسين على محفوظ ، ديوان النواعير ، من ابحاث ندوة النواعير التي اقامها مركز احياء التراث العلمي العربي ،جامعة بغداد بالتعاون مع جامعة بغداد ،٣-٤ ،اذار ،١٩٩٠.
٦. ابن الرومي ،علي بن العباس بن جريج ؛ ديوان ابن الرومي، تحقيق، أحمد حسن الناشر: دار الكتب العلمية،١١٥٠/٣.
٧. الشمشاطي أبو الحسن علي بن محمد العدوي المعروف بالشمشاطي من أعلام القرن الرابع الهجري (الأنوار ومحاسن الأشعار) (نشرته وزارة الإعلام في الكويت ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م)
٨. عادل البكري ،أساليب استخدام النواعير عند العرب ،ندوة النواعير التي اقامها مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد بالتعاون مع جامعة الانبار للمدة من ٣- ٤ اذار ،١٩٩٠.

٩. مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ٩٣ و ٩٤ - السنة الرابعة والعشرون - آذار وحزيران ٢٠٠٤ .
١٠. ديوان ابن الرومي ، ديوان ابن الرومي ١١٥٠/٣.
١١. ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج٥ ، دار صادر بيروت ،١٩٧٥،،
١٢. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج١٣. الطبعة الأولى، ١٩٩٣م،

الهوامش

[١] **التنوخي ، نشوار المحاضرة وإخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ،١٩٧١، ج٨،ص٢٣٦**

[٢] **عادل البكري ،أساليب استخدام النواعير عند العرب ،ندوة النواعير التي اقامها مركز إحياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد بالتعاون مع جامعة الانبار للمدة من ٣- ٤ اذار ،١٩٩٠، ص٤٤-٥٣**

[٣] **د احمد سوسه ، حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين ،وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد ، ١٩٨٠،ص٦٠**

[٤] **، انستاس ماري الكرملي ، مجلة لغة العرب ،المجلد الاول ،اذار ١٩١٢**

[٥] **المرجع السابق ،ص٣٤**

[٦] **ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج٥ ، دار صادر بيروت ،١٩٧٥،،ص٤٢١**

[٧] **ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ج١٣، ص٢٤٠**

[٨] **الشمشاطي أبو الحسن علي بن محمد العدوي المعروف بالشمشاطي من أعلام القرن الرابع الهجري (الأنوار ومحاسن الأشعار) (نشرته وزارة الإعلام في الكويت ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) ، ص٣**

[٩] **المصدر نفسه ،ص٣**

[١٠] **المصدر نفسه ،ص٤**

[١١] **الشمشاطي، الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٤.**

[١٢] **المصدر نفسه ، ص٥**

[١٣] **المصدر نفسه ، ص٩**

[١٤] **انظر ديوان ابن الرومي ١١٥٠/٣.**

[١٥] **الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٧.**

[١٦] **الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٩.**

[١٧] **الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٧.**

[١٨] **الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٦.**

[١٩] **الشمشاطي، الأنوار ومحاسن الأشعار، ص٨ - ٩.**

[٢٠] **المصدر نفسه ، ص٥.**

٢١ **جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الازدى ، بدائع البدائه في جزئين ، وطبع ايضا في مطبعة محمد مصطفى سنة ١٣١٦ هـ ...،ص٧**

[٢٢] بدائع البدائه، ص٢٠٤.

[٢٣] مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ٩٣ و ٩٤ - السنة الرابعة والعشرون - آذار وحزيران ٢٠٠٤ -

[٢٤] حسين على محفوظ ، ديوان النواعير ، من ابحاث ندوة النواعير التي اقامها مركز احياء التراث العلمي العربي ،جامعة بغداد بالتعاون مع جامعة بغداد ،٣-٤ ،اذار ،١٩٩٠،ص١٥٥-١٦٣